دراسات الجامعة الإسلامية العالمية شيتاغونغ
ISSN 1813-7733
المجلد الرابع, ديسمبر 2007م (ص33-44)

الوضع في السنة وجهود العلماء في مقاومتها

الدكتور محمد غياث الدين حافظ*

مقدمة: من أخطر المحن التي مر بها المصدر الثاني للتشريع الإسلامي محنة الوضع، وذلك أن خصوم الإسلام لم يجدوا منفذا لدسائسهم وأحقادهم إلا عن طريق الحديث، فأشبعوه أكاذيب استغرق تخليصها جهود العديد من جهابذة العلماء عبر عقود من السنين بعد أن عجز هؤلاء الخصوم عن مطاولة القرآن؛ وإن حاول بعضهم النيل منه بتأويل ما يتعارض من آياته الكريمة مع مصالحهم وأغراضهم المنحرفة عن منهج الإسلام الرشيد. تكاد كلمة مؤرخي السنة تتفق على أن الوضع في الحديث، والكذب على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بدأ في الظهور بعد مقتل عثمان بن عفان – رضي الله عنه -، والذي نتج عنه افتراق الأمة الإسلامية إلى شيع وأحزاب، والتباس الحق مع الباطل، والإخلاص مع الهوى، والحقيقة مع التأويل. غير أن الأحداث المصاحبة لمقتله تلقي ظلالا على أن الوضع في الحديث لم يظهر على أفق الإسلام إلا كإحدى حلقات المؤامرة ضد الإسلام والمسلمين، التي دبرها ونسج خيوطها أبناء الأمم المهزومة على أيدي المسلمين من اليهود والنصارى والفرس، بهدف النيل من الإسلام والمسلمين، ثم تطور الوضع في الحديث من هدف إلى هدف، ومن سبب إلى سبب، بدأ من فضائل الصحابة، وانتهى بالأغراض الخصية، وأتى من خلاله على جميع جوانب الحياة الخاصة والعامة.

وبعد ذلك انقسمت كلمة الأمة إلى شيع وأحزاب. ومع الأسف أن هذا الانقسام أخذ شكلا دينيا كان له أبلغ الأثر في قيام المذاهب الدينية المختلفة، فلقد حاول كل حزب أن يؤيد موقفه بالقرآن وبالسنة. وطبيعي أنه لا يكون مع كل حزب ما يؤيدونه في كل ما يدعون، فعمل بعض الأحزاب على أن يضع على لسان الرسول – صلى الله عليه وسلم - أحاديث تؤيد دعواهم. وقد أضرت تلك الأحاديث الموضوعة جوانب كثيرة من الأمور الاعتقادية، والعبادة،

---

* أستاذ مساعد، قسم علوم القرآن والدراسات الإسلامية، الجامعة الإسلامية العالمية شيتاغونغ.

والسلوكية، والفكرية، والاجتماعية، وكدرت صفاء الإسلام ونقاءه، وأصبح التخلص منها عسيرا يحتاج إلى تبصير دائم، وتذكير مستمر متواصل. فإن من أجل الأعمال قدرا، وأغناها أجرا، تمييز الحديث الصحيح من الموضوع، والمصدوق من المكذوب، وتنزيه السنة النبوية عن الترهات والأباطيل، والدسائس والأضاليل، وإنقاذ عباد الله المؤمنين من معرة العمل بالكذب، والتورط في التمسك بالباطل، وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا.
ومن فضل الله علينا وعلى الناس جميعا أنه سخر لهذا الدين من يذب عنه الأذى والعدوان، والذي بسببه صارت هذه الشريعة نقية صافية بيضاء ليلها كنهارها. وبقي الحديث صافيا لا يعتريه الكذب، ولا يتناوله التحريف والتلفيق طوال اجتماع كلمة الأمة على الخلفاء الراشدين الأربعة.

وهذا البحث كمحاولة لمواكبة التطور الحاصل في وضع حديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وذلك من خلال الوقوف على مناقشة أقوال علماء لمنكري السنة بسبب أن الحديث فيه الوضع منذ بدايته، وهم "تحققوا أن أكثرها موضوعات"؟؟؟

هذه استفسارات حاولت أن أقف في ثنايا هذا البحث على إجابات شافية واضحة لها، وقد جاءت هذه المقالة بعد المقدمة حول العلاقة بين الحديث والقرآن، وأقوال المنكرين للسنة، وجهود علماء السنة في مقاومة الوضع في الحديث.

العلاقة بين الحديث والقرآن:

إن السنة النبوية هي البيان النبوي المكمل للقرآن الكريم، كما قال الإمام الشافعي: في تفسير هذه الآية الكريمة: (لَقَدْ مَنَّ اللَّهُ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ إِذْ بَعَثَ فِيهِمْ رَسُولًا مِنْ أَنْفُسِهِمْ يَتْلُوا عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِنْ كَانُوا مِنْ قَبْلُ لَفِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) [آل عمران: 164]. إنه فسر الآية المذكورة قائلا: "الكتاب" هو القرآن الكريم، و كلمة "الحكمة" وهي السنة النبوية.1

وفسر ابن حزم – رحمه الله - في تفسير قوله تعالى: (وَمَا يَنْطِقُ عَنْ الْهَوَى)[النجم: 3]. صح لنا بذلك أن الوحي ينقسم على قسمين:

أحدهما: وحي متلو مؤلف تأليفا معجز النظام، وهو "القرآن".

والثاني: وحي مروي، منقول غير مؤلف، ولا معجز النظام، ولا متلو، ولكنه مقروء، وهو الخبر الوارد عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم -.2 ثم ذكر العلاقة بين السنة والقرآن قائلا: "القرآن والخبر الصحيح بعضها مضاف إلى بعض، وهما شئ واحد في أنهما من عند الله "3. وإن السنة النبوية هي تفصيل

لنص عام للقرآن الكريم، فلا نجد في الحديث حكما إلا وقد دلَّ القرآن عليه إجمالاً أو تفصيلاً، كما قال الإمام الشاطبي: "بيان لما فيه وذلك معنى كونها راجعة إليه".4 وذكر الإمام ابن عبد البر في كتابه: "جامع بيان العلم وفضله": "السنة قاضية عن الكتاب، والسنة تفسر الكتاب وتبينه".5

والقرآن الكريم هو كتاب أنزله الله تعالى لهداية البشرية أجمع، وإنه لا يتكلم إلا عن المبادئ الأساسية للدين في كل دائرة من دوائر الحياة الفردية والاجتماعية. فأنزل الله تعالى القرآن وبعث معه النبي – صلى الله عليه وسلم -؛ لكي يبينه ويفسره بقوله – صلى الله عليه وسلم - وبعمله، فلم يكن إذن قوله – صلى الله عليه وسلم - وعمله إلا "تفسيرا رسميا"، فلا يمكن الوصول إلى المراد الصحيح، بدون اعتناء بما ثبت عنه – صلى الله عليه وسلم - قولاً، وعملاً، وتقريراً. فهذا ما يتبين منه السنة وأهميتها للتفسير، كما قال الأستاذ أبو الأعلى المودودي: وقد أسند البناء العملي والفعلي لمنهج الحياة الإسلامي حسب التعليمات التي يحويها الكتاب إلى النبي – صلى الله عليه وسلم -، الذي بعثه الله خاصة، لينشي النموذج المثالي لحياة الفرد والدولة، وفقاً للمبادئ الأساسية التي جاء بها القرآن الكريم.6 فيتبين من هذا القول بأن الهدف الأساسي الذي بعث الله النبي – صلى الله عليه وسلم – هو أنه لا يمكن للإنسان أن يفهم القرآن إلا بالسنة النبوية، ويؤيد الأستاذ المودودي موقف هذا ويقول: "إن الله تعالى لم يرسل الكتاب فحسب، بل بعث معه رسول الله – صلى الله عليه وسلم -، ليبين للناس تعاليمه، ويشرح لهم مبادئه بممارستها في الواقع العملي".7

وضح الدكتور يوسف القرضاوي في مسئولية المسلمين نحو السنة النبوية قائلا: "فقد كان الرسول – صلى الله عليه وسلم - هو المبين للقرآن، والمجسد للإسلام، بقوله وعمله، وسيرته كلها، في الخلوة والجلوة، والحضر والسفر، واليقظة والنوم، والحياة الخاصة والعامة، والعلاقة مع الله ومع الناس، ومع الأقارب والأباعد والأولياء والأعداء، في السلم وفي الحرب، وفي العافية والبلاء".8 وذكره بأن قول الرسول وعمله هو المفسر للقرآن: إن السنة هي التفسير العملي للقرآن، والتطبيق الواقعي للإسلام، فقد كان النبي – صلى الله عليه وسلم - هو القرآن مفسرا، والإسلام مجسما.9

نقول: إن السنة هي أهم الوسائل لفهم القرآن وتفسيره، حيث إن السنة في كونها تفسيرا وتشريعا؛ حيث لا يمكن تفسير القرآن بدون الاعتناء بها؛ لأنها هي مبينة للقرآن الكريم.

أقوال منكري السنة:

وهناك بعض الباحثين الذين اتبعوا مسلك المستشرقين هم بأنفسهم وجدوا الفرصة ليدس السم في الحديث النبوي بطرق جديدة، فخططوا لهدم أسس الإسلام وتشكيك المسلمين في دينهم، فوجهوا سهامهم إلى السنة محاولين تشويهها، وسلكوا في ذلك طرقا متعددة لإنكارها جملة وتفصيلا بعد التشكيك فيها. ونجد المنكرين للسنة النبوية أغلبهم طارئين على علوم الدين من تخصصات مختلفة، كالطب والأدب والمحاماة، وقليل ممن أنكر السنة بعد دراسة شرعية، وهم يدعون على أن الحديث فيه الوضع والكذب. وبسبب هذا أنهم أنكروا الحديث البتة التي تصل إلى ضلالهم وعنادهم إلى إنكار السنة.

وهنا بعض من أبرز في هذا الميدان، ومنهم:

الطبيب محمد توفيق ت 1338هـ10، محمود أبو رية11، الدكتور إسماعيل أدهم ت 1940م12، أحمد أمين ت 1954م13، ومن الهند سر سيد أحمد خان14 وزملاؤهم، ثم بعد وفاة السيد انكر السنة النبوية وقادها مولوي عبد الله الجكر الوي16، ثم خواجه أحمد الدين الامرتسري17، ثم الحافظ محمد أسلم الجيراجيوري18، والتي يقودها الشودري غلام أحمد بريز19.

ونذكر بعض أقوالهم الضالة فيما يلي:

الطبيب محمد توفيق ت 1338هـ. إنه كتب مقالين بعنوان: "الإسلام هو القرآن وحده" ونشر في مجلة المنار المصرية، وفيما يلي موجز ما قال عن السنة في مقاليه:

قال: "إن السنة لم تحفظ، ولم تعط ما تستحق من العناية، ومرجع ذلك أن الرسول لم يرد أن يبلغ عنه شيئا سوى القرآن".20

إن الأحاديث دخلها الكذب والوضع، ومن غير المنطق أن يبني الدين على أمر لا يتميز حقه من باطله، "نظر المجتهدون في الأحاديث نظرة فعلموا ما فيها من اختلاف، وتحققوا أن أكثرها موضوعات" فهل يعقل أن الله يدين العالمين بشيء لا يمكن لأحد أن يميز حقه من باطله".21

وأن السنة تفيد الظن، والظن غير مقبول عند الله، .... والظن لا قيمة له عند الله".22

محمود أبو رية: أوعى من جمع الشبهات المبعثرة، التي نشرت أو سمعت أو رويت شفاها حول السنة في لغة الضاد هو محمد أبو رية، وقد تكفلت مجلة الرسالة منذ إبريل 1951م. بنشر أبحاث أبي رية عن السنة تحت عنوان "في الحديث النبوي" ثم جمعت في كتاب سمي بـ "أضواء على السنة المحمدية".

وهو الذي دس سموما حول تدوين السنة، ويقول في مجلة الفتح: "ولو أن هؤلاء الصحابة كانوا قد فعلوا في تدوين حديث رسول الله – صلى الله عليه وسلم - مثل ما فعلوا في تدوين القرآن، لجاءت هذه الأحاديث على غير ما هي عليه الآن، فتكون كلها متواترة، ليس فيها اسمه صحيح، ولا شئ اسمه حسن ولا ضعيف ولا موضوع"23. ويكمل سلسلة كلامه فيتهم العلماء من مشايخه بأنهم حدثوه أن الأحاديث المدونة في الكتب هي نص ما نطق به لسان المصطفى عليه الصلاة والسلام- لفظا ومعنى، فيقول: "وكنت أعجب كيف يصدر عنه – صلى الله عليه وسلم - مثل هذا الكلام المغسول من البلاغة، والعاري من الفصاحة وهو أبلغ من نطق بالضاد، أو يأتي منه مثل تلك المعاني السقيمة، وهو أحكم من دعا إلى رشاد، وما كان هذا العجب إلا لأني كنت أسمع من شيوخ الدين أن الأحاديث التي تحملها كتب السنة قد جاءت كلها على حقيقتها بألفاظها ومعانيها، وأن على المسلمين أن يسلموا بكل ما حملت، ولو كان فيها ما فيها".24

يشترط أبو رية لقبول الحديث أن يكون مرويا بألفاظ المصطفي – صلى الله عليه وسلم -، فها هو ذا يلوم العلماء لإهمالهم ذلك، فيقول: "فإنهم قد أهملوا جميعا أمرا خطيرا كان يجب أن يعرف قبل النظر في هذا العلم، ودروس كتبه، ذلك هو البحث عن حقيقة النص الصحيح لما تحدث به النبي – صلى الله عليه وسلم - وهل أمر بكتابة هذا النص بلفظه عند إلقائه؟ كما فعل بالقرآن الكريم".25

ويتوغل في اللوم، ويتهم أعمال العلماء لخدمة السنة بعدم بلوغ الغرض المرجو منها، وعلى أنهم قد بذلوا في هذا السبيل ما بذلوا؛ لكنهم لم يصلوا إلى الغرض المرجو منه، ولا بلغوا مستقر اليقين الذي تسكن إليه النفس، ويطمئن به القلب، من أن ما دونوه هو نفس ما نطق به النبي، بحيث لا يدنو منه شك، أو يعروه شبهة".26 ويتهم جهود العلماء في فحص السنة لتمييز صحيح السنة من سقيمها بأنها غير مجدية، لأن الإطلاع على خبايا النفوس أمر عسير "وأني لهم أن ينفذوا إلى دخائل النفوس، وبواطنها، حتى يطلعوا على حقيقتها، ومن أجل ذلك جاءت كتبهم كلها وليس فيها مما جاء عن رسول الله حديث يعتبر متواترا، بل نجدها قد جمعت بين ما هو صحيح في نظر الرواة، وما هو موضوع لا أصل له، ولا يخلوا من ذلك كتاب، حتى التي سموها الصحاح وهي صحيح البخاري ومسلم".27 وهو أيضا يقول: إن الحديث سبب أساسي لتقسيم الأمة، وتشتيتها إلى فرق متباينة، وذلك لا يتفق مع ما يدعوا إليه الإسلام من توحيد الصف، وجمع الكلمة، تحت راية واحدة، وإن السنة لو دونت في عهده – صلى

الله عليه وسلم - لسلمت الأمة من هذا الداء. 28 ثم يعدد أبو رية مضار تأخير التدوين، فيرى أن تأخر التدوين خلط صحيح السنة بالموضوع، ويعذر التمييز بينهما الآن، من أجل ذلك كان الوصول إلى معرفة الأحاديث الصحيحة شاقا، والبحث عن معرفة حقيقة ضمائر الرواة أشق، وإذا علم ذلك بدا ولا ريب أن تأخير التدوين كان له ضرر بالغ إذ كان سببا في اتساع آفاق الرواية، واختلاط الصحيح بالموضوع، وتعذر بينهما على مر الدهور.29

وأخطر خطوة خطاها أبو رية تجاه هدم السنة، هو رمي الصحابة وأول ناقليها بالغباء، وأن أحبار اليهود نشروا بين صفوفهم أحاديث نسبوها زورا إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم -، فتقبلها الصحابة لضعفهم مقابل دهاء الأحبار، "أخذ أولئك الأحبار يبثون في الدين الإسلامي أكاذيب وترهات يزعمون مرة أنها في كتابهم، أو من مكنون علمهم، ويدعون أخرى أنها مما سمعوه من النبي – صلى الله عليه وسلم - وهي في الحقيقية من مفترياتهم، وأنى للصحابة أن يفطنوا لتمييز الصدق من الكذب من أقوالهم، وهم من ناحية لا يعرفون العبرانية التي هي لغة كتبهم، ومن ناحية أخرى كانوا أقل منهم دهاء، وأضعف مكرا، وبذلك راجت بينهم سوق هذه الأكاذيب، وتلقى الصحابة ومن تبعهم كل ما يلقيه هؤلاء الدهاة بغير نقد أو تمحيص، معتبرين أنه صحيح لا ريب فيه".30

ولما كان أبو رية وقحا في عباراته، صريحا في اتهاماته المكذوبة، ولا سيما على أبي هريرة – رضي الله عنه - فمرة يسميه "شيخ المضيرة" – الطعام الدسم - ومرة يصفه "لا في العير ولا في النفير"، "تفاهة أمره" "حقارة منبته"31 وأمثال هذه الكلمات الشنيعة التي يترفع عنها رجل الشارع في تعامله.

الطبيب أبو شادي ت 1955م. هو الشاعر المصري المعروف،واسمه أحمد زكي أبو شاوي، وجمع شعره في عدة دواوين منها "الشفق الباكي" "أشعة وأطلال". والذي يهمنا من إنتاجه هو كتابه "ثورة الإسلام" الذي مزج فيه الحق بالباطل، واستهزأ بالسنة وجامعيها، وزعم أن الأحاديث كلها مختلقة، ولا يرضيه نسبتها إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم - وهو يقول: "وهذه سنن ابن ماجه والبخاري وجميع كتب الحديث والسنة طافحة بأحاديث وأخبار لا يمكن أن يقبل صحتها العقل، ولا نرضى نسبتها إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم - وأغلبها يدعو إلى السخرية بالإسلام والمسلمين وبالنبي الأعظم".32

ويزعم أبو شادي أن أحكام القرآن والحديث قابلة للتغير بتغير الزمان والمكان، لأنها جاءت عن سبب وبزواله لزم زوال المسبب "والقرآن الشريف والأحاديث النبوية مجموعة مبادئ خلقية وسلوكية مسببة، بحيث أن أحكامها عرضة للتبدل بتبدل الأحوال والأسباب، ففيه شواهد هادئة على ضوئها وأسبابها وظروفها، لا أحكام متزمتة، لا تقبل التعديل وفاقا لتبدل الأسباب والظروف".33 فما دام أبو شادي أحد دعاة توحيد الأديان، فلا يهم أن يتهم أبا هريرة وأنس بن مالك وعبد الله بن عباس بوضع الحديث على رسول الله – صلى الله عليه وسلم - ونسبته إليه كذبا وزورا، "وقد خدع بهم – بالزنادقة - عدد من المسلمين المتقدمين، ناهيك بغفلة أمثال أبي هريرة وأنس بن مالك وعبد الله بن عباس، وكلهم انتحلوا الأحاديث، وتأثروا بالإسرائيليات الغريبة".34

الدكتور إسماعيل أدهم 1940م. كاتب تركي، ولد بالإسكندرية، نال الدكتوراه في العلوم من جامعة موسكو. وكتب مقالة تحت عنوان "مصادر التاريخ الإسلامي"، أعلن فيه "أن هذه الثروة الغالية من السنة، التي تضمها كتب الصحاح، ليست ثابتة الأصول والدعائم، بل هي مشكوك فيها، يغلب عليها صفة الوضع".35

محمد أبو زيد الدمنهوري: فيما له صلة من مؤلفات هذا الرجل كتاباه "الزواج والطلاق المدني في القرآن"، "تفسير القرآن بالقرآن"، وله مقالة نشرت في الفتح، ويتلخص قوله في السنة أنها نكبة على المسلمين، وعلى دين الله عز وجل، ويتمنى إحراقها وإعدامها من الوجود، وتكون نقطة بداية التحريق من صحيح البخاري فمسلم ليرتاح الناس من شر ما فيهما.36

حسين عامر: فهذا حسين عامر ينشر في الأهرام مقالا بتاريخ 1346/8/3هـ. يهاجم الشريعة، ويشتم المتمسكين بها، ويحكم على السنة والأحكام الواردة عن طريقها بعدم الثقة. وهو يقول: إن الأحكام الشرعية لا سبيل إلى أخذها إلا من الكتاب الحكيم، وأما السنة فلا ثقة بها، ولا يعول عليها في الأحكام".37

أحمد أمين ت 1954م.: تحدث أحمد أمين في أبحاثه الاجتماعية والدينية والتاريخية عن السنة، ومدى اهتمام المسلمين بها، وحاول حينا بعد حين أن يردد آراء المستشرقين وشبهاتهم حولها، غير أنه تقنع، قلما يبدو لأول وهلة أنه منكر للسنة أو يحاول النيل منها، بل يتخيل القارئ أنه يواسي السنة، ويشكر جهود العلماء في الذب عنها، وتمييز صحيحها من سقيمها.

ومن هنا يظهر صعوبة كشف الرجل وتعيين موقفه من السنة النبوية غير أن إنكاره الجزئي للسنة الصحيحة واضح لا لبس فيه، فقد نقد العديد من أحاديث الصحيحين المرفوعة.

ويرى أن الوضع في أحاديث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والكذب عليه قد ظهرا في حياته، مع أن المحققين في القضية يعيدون ذلك إلى أواخر عهد عثمان –رضي الله عنه-، ومن جاء بعده من الخلفاء الراشدين وغيرهم.

قال أحمد أمين: "ويظهر أن هذا الوضع حدث في عهد الرسول، فحديث "من كذب...."، يغلب على الظن أنه إنما قيل لحادثة زور فيها على الرسول وبعد وفاته – صلى الله عليه وسلم - كان الكذب عليه أسهل، وتحقيق الخبر عنه أصعب.38

ويشير أحمد أمين القارئ إلى نظرة الشك في السنة كلها بأنها من منطلق التكاثر المتدرج في عصور الجمع قائلا:

"ومن الغريب أننا لو اتخذنا رسما بيانيا للحديث لكان شكل هرم، طرفة المدبب هو عهد الرسول – صلى الله عليه وسلم -، ثم يأخذ في السعة على مر الزمان حتى نصل إلى القاعدة أبعد ما نكون من عهد الرسول، مع أن المعقول كان العكس، فصحابة رسول الله أعرف الناس بحديثه، ثم يقل الحديث بموت بعضهم مع عدم الراوي عنه وهكذا، ولكنا نرى أن أحاديث العهد الأموي أكثر من أحاديث عهد الخلفاء الراشدين، وأحاديث العصر العباسي أكثر من أحاديث العهد الأموي".39

سر سيد أحمد خان الهندي: والذين أنكروا السنة النبوية في كونها تفسيراً وتشريعاً، وفسروا القرآن بأسلوب جديد يوافق الحضارة الغربية وراعوا في تفاسيرهم العلوم والفلسفات المادية، وأنكروا كل ما لا يثبته الحس والتجربة. ورفضوا وجود الجن، والملائكة، والشيطان، والمعجزات، وما إلى ذلك مما لا يرى بالعيون.40

كل هذه التساؤلات والاتهامات للسنة النبوية بسبب الوضع فيها، ولكن علماء السنة قد ساهموا في صيانتها عن الوضع. الخطط التي وضعها علماء المسلمين كما يلي:

وقد وضع علماء السنة منهج التحقيق للمرويات رواية ودراية، ولم تقتصر عنايتهم على السند وإنما امتدت أيضا إلى دراسة المتن، ووضعوا أصول الجرح والتعديل، وصنفوا في طبقات الرجال وفي تواريخ الرجال، وقسموا

الخبر إلى درجات من الصحة والحسن والضعف والوضع بحسب درجات الضبط والعدالة، وقد تبرمج هذا المنهج كاملا فيما يعرف بعلم مصطلح الحديث. كما قال ابن خلدون في مقدمته في صفحة34-35: إن الأحاديث النبوية هي من قبيل "الإنشاء" فهي أوامر ونواه، وعقائد، وطريقها في التحقيق يعتمد على نقل الرواة والتحري عنهم، ولذا وضع علماء الحديث علم الجرح والتعديل، وعلم طبقات الرجال وتاريخ الرجال وغيرها من العلوم التي ينبني عليها توثيق الشريعة.

إن الله قيض لهذه الأمة رجالا مخلصين، قاوموا الوضاعين ومن تبعهم، وميزوا الباطل من الصحيح، واتبع علماؤنا جملة من الطرق والقواعد، استطاعوا من خلالها مقاومة الوضع في الحديث، وتمييز الموضوعات. وفيما يلي بيان الخطوات التي ساروا عليها في سبيل النقد. ومنها:

أ- **الجهود الوقائية:** هذه الجهود تتمثل في أن علماؤنا حثوا تلاميذهم على ضرورة التثبت في الرواية، والتحري عند أخذها، بل الاقتصار في الأخذ على أهل الشأن العارفين به؛ ومنها استلزام السند، ونقد الرواة وغيرهما من الجهود الوقائية. وهي كالأتي:

استلزام السند: وقد بدأ الاهتمام بالإسناد والسؤال عنه في فترة مبكرة، وذلك في أعقاب الفتن التي بدأت منذ خلافة عثمان بن عفان- رضي الله عنه- وأدت إلى التمزق في كيان المجتمع الإسلامي وظهور الأهواء السياسية المتعارضة، مما أدي إلى ظهور الكذب في الحديث، وجعل العلماء يتثبتون في مصادر الرواية، ويسألون عن الرجال الذين اشتركوا في نقلها.

يقول ابن سيرين – فيما يرويه عنه الإمام مسلم - في مقدمة صحيحه: لم يكونوا يسألون عن الإسناد، فلما وقعت الفتنة قالوا: سموا لنا رجالكم، فينظر إلى أهل السنة فيؤخذ حديثهم، وينظر إلى أهل البدع فلا يؤخذ حديثهم.41 وقد ازداد السؤال عن الإسناد في جيل التابعين فسئل الحسن البصري عن إسناد مراسيله. وهكذا كان التفتيش عن الإسناد في زمن كبار التابعين، ولكن التأكيد على الإسناد والإلحاح في طلبه ازداد بعد جيل الصحابة وكبار التابعين بسبب شيوع الوضع واتساع نطاقه على مر الزمن، فأصبح الإسناد ضرورة لا مناص للمحدث من ذكره إذا أراد لرواياته القبول ويعكس لنا أهمية الإسناد في هذه الفترة ما قاله نقاد الحديث وأئمته، مثل محمد بن سيرين الذي رأى: "أن الإسناد من الدين ولو لا الإسناد لقال من شاء ما شاء". واعتبره الإسناد من الدين، لأن الإسناد وسيلة لتمييز الأحاديث ومعرفة الصحيح من الموضوع مما يترتب

عليه أحكام وتعاليم الدين، وهو ما عناه ابن سيرين بقوله الآخر: "إن هذا العلم دين فانظروا عمن تأخذون دينكم". وقوله أيضا "بيننا وبين القوم القوائم: يعنى الإسناد".42

نقد الرواة: وكان لابد للصحابة والتابعين ومن تبعهم من معرفة رواة الحديث، ومعرفة تمكنهم من الحكم بصدقهم أو كذبهم، حتى يتمكنوا من تمييز الصحيح من المكذوب، لذلك درسوا حياة الرواة وتاريخهم، وتتبعوهم في مختلف حياتهم، وعرفوا جميع أحوالهم، كما بحثوا أشد البحث حتى عرفوا الأحفظ فالأحفظ والأضبط فالأضبط، والأطول مجالسة لمن فوقه ممن كان أقل مجالسة. وهكذا تكون علم الجرح والتعديل الذي وضع أسسه كبار الصحابة والتابعين على ضوء الشريعة.

ب- **الجهود العلاجية:** وهذه الجهود التي بذلها العلماء لمقاومة الوضع في الحديث، استهدفوا فيها "الكذبة والوضاعين من الرواة" وهي تتمثل فيما يلي:

1- جمع الأحاديث الموضوعة، وبيان حالها ونقدها سندا ومتنا.

وقد اعتنى أئمة الحديث بجمع الأحاديث الموضوعة في الكتب، مثل: ابن معين، وابن المديني، وأحمد بن حنبل، ويحيى بن سعيد القطان.

2- فضح أمر الوضاعين والكذبة، فالكشف عن أحوالهم علة رؤوس الأشهاد.

وهذه هي إظهار حال هؤلاء الرواة، وممن عرف عنهم ذلك العلاج جماعة من كبار أئمة الحديث ونقاده، منهم: سفيان الثوري، ومالك، وشعبة، وعيينة، وعبد الله بن المبارك، وأحمد بن حنبل وغيرهم.

3- جمع الكذبة والوضاعين في الكتب.

وهذه المصنفات كالتالي: كتاب الضعفاء لكل من: ابن المديني (ت234هـ) وابن البرقي (ت249هـ) والبخاري (ت256هـ) والجوزجاني (ت259هـ) والبرذعي (292هـ) وابن الجارود (ت299هـ) والنسائي (ت303هـ) والساجي (ت307هـ) والدولابي (ت310هـ) والعقيلي (ت322هـ) والجرجاني (ت323هـ) وابن السبكي (ت353هـ) وابن حبان (ت354هـ) وابن عدي (ت365هـ) والدارقطني (ت385هـ) وغيرهم من علماء السنة الجهابذة.

4- المبادرة إلى جمع الأحاديث وتدوينها.

وكان تدوين الحديث من أهم العوامل التي حالت دون وصول الوضاعين إلى أغراضهم بوضع الحديث ووضعت حدا من استمرارهم فيه، فكان في تلك المبادرة حفظ السنة، ومنع للتلاعب فيها، وأصبحت فيما بعد تلك المدونات والمصنفات من المصادر التي يعتمدها العلماء لمعرفة الصحيح من الضعيف والموضوع.

والخلاصة من هذين المنهجين أن جهابذة من هذا العلم قد وضحوا أحوال الرواة: المقبول منهم والمتروك، وتكامل علم الجرح والتعديل، وألفت مصنفات ضخمة في الرواة وأقوال النقاد، حتى أنه لم يعد يختلط الكذابون والضعفاء بالعدول الثقات. كما ألفت مصنفات ومعاجم خاصة بالضعفاء والمتروكين، وأصبح من السهل جدا على أصحاب الحديث أن يميزوا الخبيث من الطيب في كل عصر، وقد بين النقاد حكمهم في الرواة على قواعد دقيقة، فقدموا للحضارة الإنسانية أعظم إنتاج في هذا المضمار، تعتز به الأمة الإسلامية، التي شهد لها كبار العلماء بأياديها البيضاء في خدمة السنة الشريفة، وهي دقيقة الصياغة ومحددة الدلالة مما لها أهمية في نقد إسناد الحديث عند جرحهم لها. وهكذا فضح علماء السنة للكذابين والملحدين في وضع الحديث الشريف.

نتائج البحث

ومن أهم النتائج التي يمكن استخلاصها من هذا البحث

أولا : إن علماء المسلمين هم الذين اكتشفوا الوضع ووقفوا على الموضوعات، وعروا الوضاعين وهزموهم.

ثانيا: إن الأحاديث الموضوعة لا صلة لها بحديث الرسول – صلى الله عليه وسلم - الذي جمعه علماء الأمة في كتب الصحاح ودواوين السنة المعتبرة، وبذلك ندرك أن الذين يحاولون التشكيك في السنة - المصدر الثاني للتشريع الإسلامي - بناء على وجود الموضوعات، إنما تصدر آرائهم وشبههم عن الجهل بحقيقة الموضوعات وموضعها من السنة النبوية الصحيحة.

ثالثا: إن علماء المسلمين نقدوا الحديث سندا ومتنا، وليس صحيحا ما ادعاه بعضهم من أن عناية المسلمين إنما اتجهت نحو النقد الخارجي وقد وضعوا بالإضافة إلى ذلك علم الجرح والتعديل الذي تعتبر قواعده وأصوله من أدق مناهج البحث العلمي التي توصل إليها حتى اليوم.

رابعا: إن العلماء المخلصين قاوموا الوضاعين ومن تبعهم، بالخطوات الآتية: الجهود الوقائية، والجهود العلاجية.

خامسا: إن الخلافات السياسية والزنادقة والعصبية والقصاص والخلافات الفقهية والزهد مع الجهل بالدين والتقرب من الملوك والأمراء بما يوافق أهوائهم وحب الظهور وغيرها من الأسباب التي ساهمت في شيوع الوضع.

سادسا: إن منكري السنة النبوية نجد أغلبهم طارئين على علوم الدين من تخصصات مختلفة، كالطب والأدب والمحاماة، ومنكرو السنة من المتخصصين في الشريعة قلة.

المراجع

1. الشافعي، **الرسالة**، الطبعة أحمد شاكر، ص78.
2. ابن حزم، أبو محمد ، علي بن احمد الظاهري، **الإحكام في أصول الأحكام** تحقيق: أحمد محمد شاكر، (القاهرة: د. . ت.)، ص87/1.
3. المرجع السابق، ج1، ص88.
4. الشاطبي، أبو إسحاق، إبراهيم بن موسى، **الموافقات** تحقيق وتعليق: الشيخ عبد الله دراز، الطبعة الثانية، (بيروت: دار المعرفة، 1975م)، المجلد الثاني، ص12-13.
5. ابن عبد البر، أبو عمر، يوسف بن عبد الله النمري، **جامع بيان العلم وفضله** (مصر: دار الطباعة المنيرية، د.ت.)، ج2، ص191.
6. الأستاذ أبي الأعلى المودودي، **تفهيم القرآن**: ج1، ص37.
7. المرجع السابق: ج1 ص37.
8. يوسف القرضاوي، **كيف نتعامل مع القرآن معالم وضوابط** الطبعة الثامنة، فيرجينيا: المعهد العالمي للفكر الإسلامي، 1996م)، ص27.
9. المرجع السابق: ص23.
10. مجلة المنار: ج610/9.
11. الفتح: ج105/17.
12. مصطفى السباعي، انظر: **السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي** الطبعة الثانية، (بيروت: المكتب الإسلامي، 1976م)، ص237.
13. أحمد أمين، **ضحى الإسلام** الطبعة السابع، (مصر: مكتبة النهضة، 1964م)، ص130/2.
14. محمد إسماعيل باني باتي، السيد أحمد خان: التجميع: لاهور: مجلس ترقي أدب، ج2، ص207.
15. المرجع السابق: ص150-196.
16. هو عبد الله بن عبد الله الجكر الوي المتوفى 1914م ولد في جكراله بمنطقة ميانوالي بإقليم بنجاب باكستان، ثم أصبح منكرا للسنة النبوية ، وله عديد من الكتب التي ألفها في تأييد مذهبه.
17. هو خواجه أحمد الدين بن الخواجميان محمد الامرتسري، المتوفى 1936م، ولد في مدينة امرتسر، بإقليم بنجاب الهند، وتلقى دراسة الابتدائية في المدرسة التبشيرية بامرتسر، ثم أخذ ثانوية من الثانوية الإسلامية امرتسر، ثم اشتغل

بالتدريس، وقام بالدعوة إلى إنكار السنة النبوية، وله عديد من الكتب التي في تأييد مذهبه.

18. هو الحافظ محمد ألم الجيراجيوري بن علامة سلامة الله البهوبالي، المتوفى 1955م، كان احد دعاة البارزين إلى الإنكار للسنة النبوية، وله عدد غير قليل من الكتب التي ألفها لنشر مذهبه.

19. هو غلام أحمد بريز بن فضل الدين، المولود 1903م، ولد في مدينة بتالة، بإقليم بنجاب بالهند، تلقى دراسة الابتدائية والثانوية في المدارس الرسمية، ثم اشتغل مؤلفا في الدوائر الحكومية المختلفة حتى أصبح مؤلفا كبيرا بعد استقلال جمهورية باكستان الإسلامية، فأصدر مجلة "طلوع الإسلام" الشهرية للدعوة إلى إنكار السنة النبوية، وله عدد غير قليل من الكتب، التي ألفها في تأييد مذهبه.
20. مجلة المنار: ج610/9.
21. المنار: 516/9.
22. المنار: 910/9.
23. الفتح: ج105/17.
24. أبو ريه، **أضواء على السنة المحمدية** محمود القاهرة: دار المعارف، 1994م، ص19.
25. المرجع السابق: ص18-20.
26. المرجع السابق: ص258.
27. المرجع السابق: ص256.
28. المرجع السابق: ص269.
29. المرجع السابق: ص269.
30. لمرجع السابق: ص147.
31. المرجع السابق: ص156-171.
32. أبو شادي أحمد: **ثورة الإسلام**: (بيروت: دار مكتبة الحياة، د.م.)، ص25.
33. **ثورة الإسلام**: ص63.
34. المرجع السابق: ص174.
35. مصطفى السباعي: **السنة ومكانتها في التشريع الإسلامي** الطبعة الثانية. بيروت: المكتب الإسلامي، 1976م، ص237.
36. **الفتح**: 504/2.
37. الفتح: 2/5-7، العدد 82 عام 1346هـ.

38. أحمد أمين: **فجر الإسلام** القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1996م، ص258.
39. أحمد أمين: **ضحى الإسلام** الطبعة السابع، (مصر: مكتبة النهضة، 1964م)، ص130/2.
40. المرجع السابق: ص150-196.
41. صحيح مسلم: مقدمة كتابه، ص3.
42. عبد الله محمد البشير ظافر: **تحذير المسلمين من الأحاديث الموضوعة على سيد المرسلين** تحقيق: فؤاد أحمد زمرل.، بيروت: دار الكتاب العربي، 1985م، ص14.